الشعر الجاهلي

طبيعته وفنـــــونه

للاستاذ السباعي السباعي بيومي
المدرس بدار العلوم العليا

نرانا مضطرين قبل التكلم في طبيعة الشـعر الجاهلي وفنونه ، أن نسوق القول عاماً في طبائع الشعر القديم كله ، حتى نرجع الشعر المذكور إلى الطبيعة التي تلائمه وإليها ينتمي .

فإن من الشـعر : ما هو قصصي ، ينصرف إلى القصة فيذكر الحروب وأبطالها ، مازجاً بذلك مناداة الآلهة واستيحاءها ، فهو في معناه شعر اجتماعي ، تفنى فيه شخصية الشاعر إلى حيث لا يراها الإنسان ، ثم هو في لفظه طويل بالغ في الطول ، تضم القصيدة الواحدة منه الآلاف من الأبيات ؛ ولكنها لا تتقيد بلون واحد من الوزن ، وكثيراً ما يعتمد في إنشادها على الموسيقى ؛ وهذا النوع يلائم كل أمة في فطرتها الأولى ، إذا تضامت برابطة اجتماعية تصل بين أفرادها في الدفاع والاغارة ، وأخرى دينية توحد بينهم في العقيدة ، على تعدد آلهتهم ومعبوداتهم ، كأمة اليونان في القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد .

ومنه ما هو تمثيلي يعتمد على الحوار المصحوب بالحركة والعمل ، والصادر عن كثير من الأشخاص ، دون اشتماله على أمثال سأل وأجاب ، أو قال وقالت ، فترى المتحاورين فيه يتحدثون وهم يغدون ويروحون ؛ ويأتون من الأعمال ما يستلزمه هذا الحوار ، معتمدين في ذلك على ما هنالك من غناء ، وموسيقى ، ورقص ، وهو في موضوعه أوسع دائرة من القصص ، لأن القصة فيـه غير قاصرة على الأبطال والحروب ، ولا مقيدة باستيحاء الآلهة ومناجاتها ، وظهوره في كل أمة نتيجة لرقى عقلي كبير ، وحياة ديمقراطية صحيحة ، كأمة اليونان منذ القرن الخامس قبل الميلاد .

ومنه ما هو غنائي يخرج عن الدائرة الاجتماعية للقصـص والتمثيل ، إلى شخصية الفرد أولا ، وقبل كل شيء ، فلا يزال يصور نفسيته وما يتصل بها من وجدان وميل ، ولا يزال صاحبه يغني نفسه بحبـه وبغضه ولذته وألمه ، وهو نتيجة لرقى الشخصية الفردية ، وتحررها من قيود الاجتماع المسيطرة على الأفراد من غير رأي لهم ، ومن شوائب العقيدة المشركة للآلهة في كل أعمالهم ، ولذلك كان المرحلة الوسطى لأخويه في الأمم التي وجدت بها

المراحل الثلاث ؛ فقد ظهر فى أمة اليونان هذه ؛ فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد .

فأنواع الشعر ثلاثة ، ونحن إذا عرضنا لأسبابها ومميزاتها نابتها على العرب فى جاهليتها ؛ لانجدها تهيأت إلا للشعر الغنائى فحسب ؛ نعم كان لها شعر ذو ذكر قوى لأبطالها ؛ ووصف معارك بحروبها؛ ولكنه لم ينهض أويسمى قصصيا ؛ لأنها قالته غير مائلة فيه؛ ودون أن تتقمص شخصيتها أو تستوحى آلهتها ، وكان لها حوار يظهر فى القصيدة بين عاشقين ، أو متخاصمين ؛ ولكنه لم ينهض كذلك أن يسمى تمثيليا ؛ لأن الحوار فيه على ضيق دائرته وقلته لم يتجرد من: قلت وقالت ، ولم يصحب من المادين بالحركة والعمل؛ كما لم يعتمد على ما اعتمد عليه التمثيل من رقص وموسيقى وغناء .

وإذن : الشعر الجاهلى غناء كله من طبيعته وبيئته ؛ وبقى كذلك بعد الجاهلية عن محاكاة وتقليد؛ وليس يضير العرب من ذلك ضير؛ لأن شاعرية الأمة لاتقاس بأنواع الشعر؛ بل بالدرجة التى بلغت إتقانا وجودة؛ فى النوع الذى تهيأت له ؛ والأمة العربية قد بلغت فى الشعر الغنائى مبلغا لم تشاركها فيه أمة أخرى؛ فقد قالته فى كل عصورها؛ فجاء فى عمومه معبرا عن الجمال الفنى المطلق ؛ الذى تنشده الانسانية كلها؛ وليكون صلة بين شعوبها وأجناسها على اختلاف بيئتها وعصورها ؛ كما جاء فى خصوصه مرآة تمثل أصدق تمثيل: شخصية الشعراء والبيئات ، وحياة الأفراد والجماعات ؛ حتى أنه ليعد من أصدق مصادر التاريخ ، على اختلاف الأمكنة والعصور ؛ وحسبه أن أدى رسالته بقوة فى هاتين الناحيتين ؛ فليس بعد ذلك لشعر مقال .

هذه طبيعة الشعر الجاهلى؛ فاذا قلنا فنونه ، فانما نقصد إلى الفنون الداخلة فى هذه الطبيعة ؛ من نسيب وفخر ؛ ورثاء ومدح؛ وهجاء ووصف ؛ لا أى نوع من النوعين الآخرين ؛ وهذه الأبواب الستة هى أهم فنونه ؛ وما عداها راجع إليها ؛وهاهى كلمة موجزة عن كل :

النسيب : يرادفه التشبيب والتغزل ، وكلها راجعة إلى المرأة فى وصفها حسا ومعنى ، وإظهار الميل إليها ؛والكلف بحبها ، مع مايتبع ذلك من التألم لفراقها ، والتشوق إلى قربها ، ونحو هذا مما يدل على شدة الصبابة ، وإفراط الوجد ؛ وتصورها فى كل ذى صلة بها ، أومشابه لها من: الديار والآثار ، والنبات والحيوان ، والرياح والبروق ؛ وقد شغل النسيب فى الجاهلية مكانا عليا من الشعر ، ولا يبعد أن يكون أقدم فنونه ، لتقدم علاقة الرجل بالمرأة ؛ ولأن حياة البداوة تجعل مشاركتها له عيشة بارزة ، هذا إلى ما للحل والارتحال الدائبين بتقلب الفصول والأيام ، من خلق أسباب الهوى والهيام ، لما فيها من قرب وفراق، وتواصل وبعاد ، ولذا كثر فى العرب العشاق المتيمون ، أمثال المرقش الأكبر ، وعبد الله ابن العجلان ، ومالك بن الصمصامة ، ومسافر بن أبى عمرو ، وعروة بن حزام ؛ فهؤلاء لهم أمثال وأشباه عاشوا للمرأة وفى المرأة ماتوا؛ فخلص لها شعرهم كما خلص لها حبهم ، على أنها

لم تعدم من غير المتيمين الكثير يقال فيها من الأشعار ، إن لم يكن في وصفها قصداً، تغزلا وافتناناً؛ ففي مطالع القصائد عرضاً، توصلا لأغراضها وتمهيداً. وأرى أن تختص تلك المطالع باسم التشبيب، فيكون هذا فرق ما بينه وبين التغزل والنسيب. أما الفرق بين هذين ، فعلى تعذر حده ، يمكن أن أقول إن التغزل ما عمد فيه الشاعر إلى وصف محاسن المرأة ، مدفوعا إلى ذلك بعقيدة أو مسوقا إليه بصناعة . والنسيب ما توجه فيه إلى ذكر الصبابة والوجد وألم الهوى والفراق ، صادرا في ذلك عن وجدان وشعور ، لا يكونان إلا للمحبين المغرمين ؛ ومن هنا أرى أن كلمة النسيب أنسب أختيها لإطلاقها على هذا الفن من الشعر كما حققناه .

الفخر : هو تمدح الشاعر بنفسه وقومه ، وذكر مآثرهم ومفاخرهم ، وأكثر ما تناول في الجاهلية : تناول الشجاعة والنجدة ، والبأس والقوة ، وإجارة الجار ، ومنع الحريم ، وإكرام الضيف ، وإيواء الطارقين ، وهي خير ما كانت تقدس العرب إذ ذاك من صفات ، وأكثر ما كان يظهر في حياتهم ويتطلبه عيشهم ، وأمثل ما كان يقع الفخر إنما كان من السادة الأشراف والأبطال الفرسان ، ومن جرى مجرى هؤلاء من الصعاليك المغيرين ؛ فمن السادة : زهير بن جناب ، والحصين بن حمام ، والمهلهل بن ربيعة ، وعمرو بن كلثوم ، والأفوه الأودي ، وعبد يغوث الكهلاني ، وعامر بن الطفيل ، وأبو قيس الأوسي ، وقيس بن عاصم المنقري ؛ ومن الفرسان : عنترة العبسي ، وعلقمة بن عبدة ، وحاتم الطائي ، وسلامة بن جندل ، وقيس ابن الخطيم ، والأغلب العجلي ، وعمرو بن معديكرب ، وأبو محجن الثقفي ، وزيد الخيل الطائي ؛ ومن الصعاليك المغاوير : عروة بن الورد ، وتأبط شرا ، وسليك بن السلكة ، والشنفرى .

الرثاء : هو بكاء الميت بتعديد محاسنه وصفاته ، في ثوب من التفجع والحسرة ، والتلهف والأسى ، مع استعظام المصيبة واستبعاد الصبر ، إن كان الميت من ذوي الرياسة والأقدار ؛ وقد كان من عادة القدماء فيه ، أن يضربوا الأمثال بمن سلف من الأنبياء والمرسلين والأمراء والملوك ، وبما حلك من الوعول المعتصمة بقنن الجبال ، والأسود الخادرة في ثنايا الغياض ، وحمر الوحش الضاربة في مجاهل القفار ، وبالنسور والحيات ، ذات البأس القوي والعمر المديد ؛ وأن يخلوه دون سائر فنون الشعر من التشبيب ، الذي اعتادوا أن يفتتحوا به القصائد في كل تلك الفنون ، وكان الرثاء في الجاهلية ذا شأن كبير ، لما كان بها من حروب وغارات ، لا تفتأ تغتال الشجعان والأبطال ؛ وقد شارك النساء فيه الرجال أكثر مما شاركنهم في باقي الفنون ؛ لأنهن أشجى قلوبا وأشد جزعا ، لما ركب في طباعهن من رقة العاطفة وضعف الاحتمال ؛ ولعل أول من أكثر فيه وأطال المهلهل في رثاء كليب أخيه ، والمراثي المشهورات كثيرات ، على أن هذا الباب قد عم وفاض ، إذ الموت شامل ، والمصيبة على تحريك النفوس بالبكاء والرثاء ذات غلبة واقتدار .

المدح : هو طريقة التنويه بفضائل الممدوح، والتعريف بصفاته إشارة بذكره ورفعا لشأنه ، سيان فى ذلك وصفه على سبيل العموم والأجمال بأمهات الفضائل ، كالشجاعة والعفة ، والعدل والعقل، أو تخصيصه على سبيل التفصيل بما هو به أشبه ، وله أيسر ، كالاقدام فى الشجاع ، والرأى فى المشير ، والعدل فى السيد ، وغير ذلك من الصفات النفسية اللائقة ؛ وليس للمادح أن يتجاوزها إلى غيرها : من الحسية كالجمال، والعرضية كالغنى — إلا ممزوجة بها وفى قصد واعتدال — على هذا كان مدح العرب فى الجاهلية، ثم إن ما ركب فى نفوسهم من عزة وأنفة وإباء وكرامة ، جعلهم يضيقون دائرة مدحهم ، فلم يتعدوا به لداتهم وذوى الرياسة من عشائرهم ، حتى كان السؤال بالشعر والاستجداء بالمدح آخر عهدهم ، فظهر فيهم من تكسب به فى ترفع كزهير ، أو تنزل كالأعشى ؛ أو بين بين كالنابغة ، ولكن قلة هؤلاء على شهرتهم وبعد صيتهم لم تخرج بالمدح الجاهلى فى جملته عما رسمناه .

الهجاء : ويكون على عكس المدح ، بتجريد المهجو من الفضائل الرائعة ، والصفات المرغبة، كما يكون بوصمه بالرذائل الشائنة، والأوصاف المنفرة، وأشده ما كان بالموازنة والتفضيل، ولم يتجاوز هجاء الجاهليين القبائل إلى الأفراد ، ولا العف من القول إلى الاقذاع، إلا حيث صار الشعر آلة للتكسب عند بعض الشعراء ، فصار من الحتم عليهم أن يهجوا ليخيفوا أو ينتقموا ، وأن يخرجوا فى هجومهم من القبائل إلى الأشخاص، منتهكين بذلك ما كان مضروبا من سياج، ولعل أول من عرف بذلك الأعشى ، ثم جاء بعده الحطيئة فأفرط وزاد ، حتى لم يعف عن هجاء نفسه بما لا يرضى أن يهجوه به إنسان ، وكذلك فعل مع أمه وأبيه ، على أن هذا لم يدنس العصر الجاهلى كله ، لأنه كان آخره ، ومقصورا على آحاد .

الوصف : معناه الكشف والاظهار ، وأبلغه ما قلب السمع بصرا ؛ والشعر إلا أقله راجع إليه ، فهو باب فى عمومه واسع النطاق ، ولكنه قصر فى عرف الأدباء على غير ما اندرج من أوصاف تحت غيره من الأبواب ، وقد طرقه الجاهليون فى كل ما شملته باديتهم ، وتناولته حاجتهم من أرض وسماء ، وأحداث جو ، وألوان نبات وحيوان يدب على الأرض ، وطير يصعد فى الهواء ؛ ولكنهم تفاضلوا فيه كما تفاضل الناس فى سائر الأشياء : فنهم من أجاده فى كثير من الأنحاء ، وإن غلبت عليه الاجادة فى بعضها ، كامرىء القيس؛ ومنهم من قصرت إجادته على شىء دون شىء ، كابن أبى دؤاد الايادى ، وطفيل الغنوى ، والنابغة الجعدى ، فى نعت الخيل، وطرفة بن العبد ، وأوس بن حجر فى الابل ، والشماخ بن ضرار فى القسى ، والأعشى فى الخمر وهكذا ، ومن ثم عرف فريق من الشعراء باسم الشعراء الوصافين كهؤلاء ؟

السباعى السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم